الوضع الصحي بإقليم الحضنة (الجزائر)
ووقع الاحتلال الفرنسي بين 1840-1945

د. كمال بيرم جامعة المسيلة

الملخص:

ظل تاريخ الحركات السياسية والثورية يستهوي اغلب الدراسات حول تاريخ الجزائر فترة الاستعمار الفرنسي ،والتي أخذت حيزا كبيرا في مجموع رصيد الكتابات التاريخية حول تاريخ الجزائر،وأغفلت الكثير من جوانب المجتمع المعيشية والصحية وغيرها.

لذلك نحاول في هذا المقال الوقوف عند إحدى الحالات الاجتماعية التي عانى منها المجتمع الجزائري خلال الاحتلال الفرنسي بسبب وجوده وسياساته، ونقصد بها الحالة الصحية التي أخذنا منطقة الحضنة كنموذج لها.

ومنطقة الحضنة التي احتلت سنة 1840 عاشت كثير من الويلات والأوبئة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي فترة طويلة أردنا الوقوف عند كثير من محطاتها لإبراز وقع الاحتلال وسياساته المختلفة اتجاه الأرض والسكان بها.

Résumé:

L'histoire des mouvements politiques et révolutionnaires on souvent séduit la plupart des études sur l'histoire de la colonisation française en l'Algérie, par contre, peu d'études on été consacrés aux différents aspects de la de vie sociale tel la santé.

D'où, cet article vise à jeter un éclairage sur les répercussions de la politique coloniale sur la situation sanitaire dans la région de M'sila. Celle ci autant qu'exemple de ce que à endurer l'ensemble de la société algérienne dans le domaine de la santé sous l'occupation française.

A savoir, le Hodna a été occupé en 1840, et depuis il a été sujet de maintes épidémies et cataclysmes jusqu'à la Seconde Guerre mondiale, Une période longue que nous voulions éclairer quelques unes de seseurs de ses stations les marquantes dans cette brève contribution.

مقدمة

الدارس لمنطقة الحضنة "hodna "التي تقع في جنوب الإقليم التلي للجزائر الشرقية ، وهي منطقة سهبية رعوية ، لا يمكن له التعرف على أوضاعها إلا من خلال الدراسة الوافية لوثائق الأرشيف المحلية و ذاكرة السكان، خاصة منها وثائق مراسلات الاهالى ،لان جانبا كبيرا من وثائق الإدارة الاستعمارية ، لا تقدم لنا الحقيقة الكاملة ، بقدر ما تقدم تقارير ايجابية لحالة السكان تمجد من خلالها وجودها وبقائها ، وهذا ما لمسناه عند اغلب تقارير المتصرفين الإداريين ، باستثناء حالات الوباء و اكتساح الجراد و الجفاف التي تكاد تكون حالات عادية أكثر منها استثنائية.

تكاد تجمع الكتابات الفرنسية التي تناولت الأوضاع الاجتماعية والصحية للجزائر على أن ما ارتبط بالجزائريين من أوضاع صعبة معيشيا وصحيا إنما مرده الطبيعة والأرض والإنسان العربي، وتتجه في معظمها الى إبراز الجوانب المرتبطة بسلوكيات الإنسان الجزائري ،لكن تتجاهل الحال بالنسبة للأوربيين وكأن الطبيعة تغضب إلا على الأهالي كما جاء في كتاب الأب بورزاتl'Abbé burzet تاريخ الكوارث في الجزائر.[1]

لقد امتزجت الوضعيات الاجتماعية بالحضنة (الصحية و المعيشية و السكن) لتتحول إلى وضعية متشابهة ، أصبحت الطابع المحلي لسكان منطقة المسيلة في ظل الاحتلال الفرنسي ،و كانت حاصل إفرازات السياسات الاستعمارية التي أرادت أن تكون مجتمعا محليا خدوما تحت سيطرة المعمرين ،على قلتهم بالمنطقة.

و للوقوف عند وقع هذه السياسات نحاول تتبع حالاتها وفق التدرج التاريخي الذي عاشته المنطقة ، انطلاقا من الوضع الصحي الذي ساد منطقة الحضنة ، وترك بصمات قاسية في ذاكرة السكان.

1- الاحتلال الفرنسي والحالة الصحية لسكان الحضنة:

لم نعثر على كثير من الإشارات حول وضع الحضنة الصحي للفترة السابقة للاحتلال التي نجهل عنها الكثير، في ظل عدم وجود المصادر و الكتابات الخاصة بالإقليم الجغرافي للحضنة ،وان وجدت فهي في إطار العموم وفي إشارات محدودة لمن عبر المنطقة ولم يستقر بها .

التقارير الفرنسية حول الوضع الصحي و التي معظمها كانت موافقة للحملات العسكرية الأولى ، تشير من خلال وصفها للوضع العام إلى تدني كبير لمستوى معيشة السكان التي

ارتبطت كثيرا بالتقلبات المناخية الصعبة التي في الغالب هي الوضع السائد لمنطقة الحضنة .[2]

وعاشت منطقة الحضنة بداية الاحتلال الفرنسي وطيلة النصف الأول من القرن العشرين حالات متكررة من الأمراض و الأوبئة التي أصبحت من الوضعيات المألوفة لدى سكان المنطقة .

فخلال الحملات العسكرية الأولى على منطقة الحضنة ،أشارت تقارير عن عدد الوفيات التي أصابت قوات الاحتلال الفرنسي ،جراء انتشار وباء الكوليرا ،مثل حالة 1849 (التي أصيب فيها العشرات من قوات الجنرال serrokka،. و الضابط pein بان، في حملاتهم ضد قوات ثورة ابن شبيرة ببوسعادة وجنوب منطقة الحضنة سنة 1849.

وفي سنة1864 عندما اندلعت انتفاضة أهل الحضنة بقيادة إبراهيم بن عبد الله بن بوعزيز قايد عرش السوامع ، تكبدت قوات الجيش الفرنسي أعدادا من الوفيات لنفس المرض الذي أصاب المنطقة .[3]

كما شهدت منطقة الحضنة بكاملها انتشار وباء الكوليرا الذي رافق سنوات الجفاف و العوز 1866-1868.وترك بصماته القاسية على التجمعات السكانية الهامة للمنطقة ،حيث بدأ في الانتشار منذ 11 جويلية 1867 وعم مختلف مناطق الجزائر .و كانت مقاطعة سطيف لوحدها التي كان يقطنها سنة 1867 ما يزيد عن 146000 نسمة، قد تعرضت إلى أكثر من 5300 حالة وفاة ،أي ما يزيد عن نسبة 3.6 % من مجموع السكان ، بينما كانت منطقة الحضنة من أهم المناطق التي مسها الوباء مثل أولاد عدي بـ 178 وفاة ، أولاد دراج بـ 186 وفاة ، المسيلة بـ 280 وفاة وغيرهم .[4]

وتعتبر فترة الصيف الحارة أهم فترات انتشار الأمراض و الأوبئة بمنطقة الحضنة كالتيفيس typhus و الرماد العيني و الكوليرا paludisme-choléra.[5]

وإذا كان حال الأهالي قبل انتصاب الحكم المدني بمنطقة الحضنة سنة 1871 تحت رحمة المناخ و المعيشة من جهة وبين تسلط الاحتلال من جانب آخر ، فان وضعهم لم يزد إلا سوءا بقدوم المعمرين الجدد وتكوين البلدية المزدوجة commune mixte بها منذ 1885 ، لذلك تكررت حالات الأمراض الفتاكة التي انتشرت وعمت قرى و أرياف منطقة الحضنة . ومن الحالات التي مست الجزائر عامة نذكر:

وباء سنة 1867) :

أشارت التقارير الصحية حول الوباء الذي أصاب الجزائر ككل خلال سنة 1867 ، انه أصاب بدوره منطقة الحضنة ، وأشارت الوثائق المختلفة أن الإصابات الأولى للوباء الكوليرا قد ظهرت في صيف 1867 بمدينة الحضنة التي تعتبر المركز الحضري للإقليم [6].

كتب الطبيب موسmousse أن المرض ظهر يوم 07 جويلية 1867في يوم الأحد بعرش السوامع احد فروع عرش أولاد دراج، عقب انعقاد السوق التقليدي ، وبعد يومين أصاب سكان مدينة الحضنة في الأحياء اليمنى لوادي القصب، وأدى الوباء حسب التقرير إلى وفاة 72 شخص بين تاريخ 07 إلى 14 أوت ، بينما توفي 04 اوروبين فقط ، كما أشارت التقارير أن الأوبئة بلغت على امتداد 18 يوما و أودت إلى 144 وفاة من الأهالي و الاوروبين بين تاريخ 14 إلى 18 أوت .

امتد الوباء إلى منطقة بوسعادة يوم 17 جويلية ، حيث كتب الطبيب دوفيل Duvelعن انتشار الكوليرا في الفترة الممتدة بين 17 جويلية إلى 08اوت ،و أرجعت الهيئة الصحية سبب انتقال هذا الوباء إلى الروابط الاجتماعية و الاقتصادية بين أهل بوسعادة وأهل الحضنة خاصة في مسألة العلاقات العائلية و التجارية ،التي تؤدي عادة إلى الإيصال و الاحتكاك و التواصل ، ساهمت عناصر طبيعية أخرى في سرعة انتقال الوباء إلى الجفاف و الحرارة خاصة أيام هبوب رياح السيروكو (الشهيلي) .[7].

هذا مع العلم أن القيادة العسكرية و الإدارية لمحيط بوسعادة كانت مكونة من قيادة عليا ، وضباط المكتب العربي و الجنود تقارب 98 شخصا ،في الوقت الذي بلغ مجموع المعمرين 77 أوروبي منهم 22 رجلا ، و 24 إمرأة و 40 طفلا ، 44 بنتا ، في حين بلغ مجموع الأهالي : 4948 رجلا ، 2444 إمراة ، 2066 ولدا أي مجموع 6096 نسمة .[8]

القيادة العسكرية في شخص القائد الأعلى للدائرة تنفي أن تكون أسباب الوباء مسألة المسافرين إلى بوسعادة لانه بلغ بمدينة االمسيلة وحدها 249 مصابا ،حيث المياه ذات النوعية الرديئة .

أكد الطبيب المسؤول عن متابعة هذا الوباء من مدينة المسيلة و أعالي جبال الحضنة نحو برج بوعريريج بدأت تظهر المباني و الأكواخ بدل الخيام ، وانتشر الوباء بداية الشتاء في مناطق برج بوعريريج التي حاولت السلطات الفرنسية وضع جهاز صحي لتأمين السكان من المرض ، غير أن انتقال بعض الجنود من المسيلة وهم مصابون بالمرض كان

من الأسباب التي أسرعت في انتشار الوباء الذي قضى بمنطقة البرج وحدها : 470 وفاة ،منها : 45 رجلا و 59 امرأة ، 62 طفلا و 54 فتاة .[9]

تؤكد جل التقارير الصحية أن المناطق المصابة هي الأكثر فقرا وحرمانا وبها اغلب الضعفاء و البؤساء

وقد أشارت التقارير في إحصائيات لبعض الوفيات بالمنطقة التي كانت تخضع لخلافة المقراني بمجانة مثل برج بوعريريج (897 وفاة) و سطيف (211 وفاة) .

وقدرت التقارير مجموع الوفيات بإقليم الهضاب العليا سطيف بـ 8394 وفاة من مجموع السكان 146000 نسمة تقريبا .[10]

وفي اغلب التقارير وجدنا نفس الملاحظات ونفس الإشارات ، بحيث أن وباء الكوليرا انتقل من الجنوب إلى الشمال ، ونفس الأسباب أدت إلى نفس النتائج . القرى الأكثر تعرضا للوباء هي الأكثر فقرا وحرمانا و الأقل نظافة و الأكثر تجمعا و احتكاكا. الوفيات تصيب في اغلب الحالات الفقراء . كل الذين كتبوا هذه التقارير هم ضباط سامون أو أطباء اجمعوا على أن انتشار الوباء كان وراءه انتقال الإفراد واتصالهم ببعضهم البعض . هكذا كان وباء سنة 1867 أكثر خطورة في ظل عدم تعود الأهالي على مثل هذه الحالات أو توقع انتشارها السريع . وعادة ما تكون عملية تسارع الوفيات عقب قدوم شخص أو أشخاص من مناطق مجاورة مصابة، وفي كل الحالات ضاعفت حالة الفقر و العوز و الحرمان و البؤس من عملية انتشار وتسارع وفيات الجزائريين . غير أن ما أكدته هذه التقارير أن الوباء الذي أصاب الجزائر ككل إنما بدأ من مدينة المسيلة سنة 1867 .[11]رغم الأمراض و الأوبئة التي صاحبت منطقة الحضنة منذ بداية الاحتلال 1840 فان الإدارة الاستعمارية لم تحاول تخفيف وطأة هذا الوضع ولم تفكر في إقامة عيادة طبية إلا سنة 1904 عندما افتتحت أول عيادة خاصة بالأهالي (infirmerie indigènes) في 16 أكتوبر 1904 جهزت بـ 17 سريرا و 3 عمال صحة . وقد بقيت هذه العيادة محدودة الخدمة وغير قادرة على تأمين صحة السكان خاصة في ظل بعد المسافات بين مركزها و الدواوير من جهة ونقص الدعم البلدي المالي لها من جهة ثانية [12] .

كما وقع نهاية القرن التاسع عشر و خاصة سنة 1893انتشار واسع لوباء الكوليرا المميت بمنطقة الحضنة كان سريعا، وأدى إلى عدد كبير من الإصابات التي قاربت 500

حالة تحولت منها 416 حالة إلى وفيات خصوصا في المناطق الحضرية كمدينة المسيلة (177 وفاة) وكان توزيع هذا الوباء حسب العدد كالتالي [13]:

جدول رقم 21 خاص بانتشار وباء الكوليرا 1893 بمنطقة الحضنة.

المناطق	عدد الإصابات	عدد الوفيات
سلمان	29	10
أولاد عدي	5	1
المسيلة	الأوروبيين: 7	3
	الأهالي : 282	282
المطارفة	59	20
أولاد منصور	35	14
السعيدة	82	28
مسيف	18	8
ملوزة	2	2

في قراءة لأرقام الجدول مقارنة بالتقارير الاجتماعية الرسمية و تقارير قياد دواوير منطقة المسيلة المرتبطة بالوفيات و المعيشة ،لا يبدوا تطابق بين الحالتين ،لان الأرقام المبينة في الجدول لا تعكس الوضع الحقيقي للأهالي على جميع المستويات و الأصعدة، وفي نفس الوقت لا تعطي الصورة الواقعية لدور العيادة الطبية الصحية اتجاه الأهالي .[14]

لقد أدى وضع الأهالي الصعب إلى اعتماد السكان بمبادرة لأعيان من ذوي الدخل إلى محاولة التكفل الاجتماعي من خلال إنشاء جمعيات التعاون و التكافل الاجتماعي لتعويض حالات البؤس و المرض الذي أصبح يلاحق السكان .[15]

وقد حصرت إدارة هذه العيادة المعطيات الأستشفائية لدورها بين سنوات 1904-1914 [16]وكان كالتالي :

جدول خاص بحالة الخدمات الصحية بالعيادة بين 1904-1914.

الحالات	1904	1906	1907	1910	1911	1912	1916	1917
عدد الأسرة	13	13	13	13	13	13	17	17
عدد الممرضين	3	3	3	3	3	3	03	04
عدد المرضى :	227							
- رجال	143	161	152	174	162	170	174	205
- نساء	31	54	39	25	44	56	41	53
- أطفال	14	22	29	34	36	37	27	27
عدد أيام إقامة المرضى	1730	2457	2825	3302	2914	2120	3114	3181
عدد الوفيات من المرضى	1	3	4	5	4	5	6	5
إصابات العيون	18	37	13	20	18	20	30	32
إصابات الهضم	48	61	21	24	20	36	18	15
إصابات الجلد	34	39	59	56	97	87	71	14
أمراض أخرى	57	/	/	/	/	/	16	20
عدد الفحوصات الطبية	150	200	2150	1400	1927	840	1701	1080

ورغم الويلات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى من مجاعات و أوبئة، فان الفترة الممتدة بين 1918 إلى غاية 1949 لم تشهد خلالها منطقة الحضنة زيادة في الإطارات الصحية ،ولم يزد عدد الممرضين عن ممرضة واحدة وعون صحي واحد .[17] ومرد ذلك

استقرار عدد المعمرين بمركز الاستيطان الوحيد بها أي بالمسيلة من جهة ،ومن جهة ثانية لم تكن لدى سكان الحضنة عادة الاستشفاء بمراكز الاحتلال و كا نت المداواة التقليدية هي الأكثر انتشارا و تقبلا .

ومما ضاعف في بؤس الأهالي صحيا ضعف الإنتاج الفلاحي، وصعوبة المناخ وانتشار حالات الحمى التي تؤدي غالبا إلى وفيات كثيرة مثل ما حدث سنة 1918 .[18]

كما أن الإدارة المحلية لم تضاعف من حجم دعمها المالي و المادي لهذه العيادة الوحيدة التي تقلص دعمها من 99 فرنكا سنة 1904 إلى 90 فرنكا سنة 1912، يأخذ منه عمال العيادة 60 فرنكا سنويا أي تقدم العيادة من مواد صحية(acide loriquet) إلا بمقدار 30 فرنكا.

و السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى كانت جد صعبة من حيث استمرار انتشار وباء التيفيس بمحيط مدينة المسيلة .[19]

<u>الأوضاع الصحية بالحضنة بين الحربين(1919-1939) :</u>

لم يتغير كثيرا وضع منطقة الحضنة الصحي بعد الحرب العالمية الأولى بسبب سياسة الاحتلال وإفرازاتها والوضعية المناخية و الاقتصادية الصعبة التي صاحبت سنوات 1918-1923 مما جعل المنطقة محل انتشار عدد من الأمراض و الأوبئة الفتاكة ، مثل الرماد العيني و الحمى او البالوديزم PALUDISME خاصة بين الأطفال التي تتراوح أعمارهم بين 10-15 سنة [20].وكان الانتشار واسعا بين أطفال الأهالي في حين لم تشمل التقارير الصحية و لا حالة واحدة عند الأطفال الأوروبين الذين وصل عددهم إلى 101 طفل ،كما استمرت حالة باقي المعمرين جيدة إلى غاية بداية الحرب العالمية الثانية .[21]

وقد ارتبطت الأمراض و الأوبئة في الفترة الممتدة بين الحربين بمنطقة الحضنة بالفقر و العوز و المجاعات بعد حالات الجفاف ونقص الإنتاج الزراعي .

ففي مقال بعنوان "المجاعة في البلد " كتبت مجلة الكفاح الاجتماعي [22] عن وضعيات الأهالي الصعبة في منطقة الحضنة سنة 1923 ،حيث انتشر الفقر من منطقة برج بوعريريج إلى بوسعادة ، المسيلة ، و كانت الإدارة الاستعمارية تقوم بتوزيع كميات محدودة من الخبز لا تزيد عن 70 غرام لكل فرد يوميا ، ولا تخفي المجلة تواطؤ الإدارة الاستعمارية المحلية مع أرباب العمل على استغلال مأساة سكان الحضنة حتى يتمكن

هؤلاء البؤساء من شراء الخبز و الحبوب و ذلك ببيع عقاراتهم لشراء ، وتضرب لذلك مثلا لذلك بسكان المسيلة أين يبدو الدور المزدوج للكولون و الإدارة في القضاء على أرزاق الناس و البؤساء .[23]

تعد الأمراض و الأوبئة بمنطقة الحضنة كحال باقي الجزائر من الحالات غير المحدودة لأنها واكبت حياة السكان فترة طويلة ،ومن أهمها أمراض العيون و الأمراض المرتبطة بالفقر كالتيفيس و الكوليرا ،وقد أحصت التقارير الصحية أنواع عديدة من الأمراض مثل الرمد العيني ، أمراض الحنجرة ، أمراض الجلد وغير ذلك كما يبين الجدول التالي خلال الحرب العالمية الأولى بين سنتي 1917-1918 ،حسب الخدمات المقدمة من العيادة الأهلية الوحيدة في الحضنة[24] :

جدول خاص بحالة الصحة خلال الحرب العالمية الأولى.

الأمراض	1917	1918
الرمد العيني	30	6
أمراض الحنجرة	76	41
أمراض الجلد	6	11
أمراض العين	4	3
الأمراض التنفسية	30	18
الأمراض الهضمية	18	17
الجراحة العامة	71	64
أمراض أخرى	16	20

ومن جانب أخر قدرت الإدارة المحلية عدد الفحوص التي قدمتها المصحة للأهالي خلال سنة 1917-1918 بـ 1501 حالة،علما أن وضع المنطقة كان أصعب قبل الحرب العالمية الأولى حسب الإحصائيات الخاصة بعيادة الأهالي بالمسيلة .[25]

بينما استمر فيه الوضع الصحي بالمعمرين في نفس الفترة على ما يرام ،حيث لم نعثر عن أي حالة من حالات الأوبئة المنتشرة أو الأمراض التي أصابت الأهالي .[26]قد أصابت مركز استيطانهم بالمسيلة،و لم نجد سوى إشارات قليلة عن ذلك مثل إصابة ثلاثة من المعمرين بمرض العيون سنة 1913.

تأثير الحرب العالمية الثانية:سنوات التيفيس و العربة بالمسيلة1941-1942 :

شهدت مدينة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية وضعا استثنائيا ،من حيث انتشار الفقر المدقع والأوبئة الفتاكة التي تركت بصمات عميقة في ذاكرة السكان الجماعية ، و التي لم تشهدها مناطق أخرى في الجزائر بنفس الحدة و الوطأة إلى بداية 1954 .[27]

لقد ساهمت عوامل عديدة في تردي حالة أهالي منطقة الحضنة خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد ألحق الجفاف المستمر بين 1937 الى 1954 حالات إضافية من الفقر التام و الكلي و الشامل لسكان منطقة الحضنة ، بعد أن جردوا خبراتهم وحرموا من أراضيهم وتشتت أرزاقهم وبيعت حيواناتهم من اجل لقمة العيش التي ضاقت من اجلها السبل .و اذا كانت التقارير الرسمية قد أغفلت نهائيا تسجيل أصعب فترة عاشتها جهة من الحضنة الغربية و هي منطقة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية ،. فان الذاكرة الجماعية المحلية تتذكرها بتفاصيلها [28].

مثلت سنوات الحرب العالمية الثانية أقصى وأشد فترات الوجود الاستعماري بمنطقة الحضنة وارتبطت أحداثها ومآسيها بذاكرة سكان المنطقة الذين جعلوا منها مرحلة هامة لبشاعة الظلم الاستعماري والتمييز العنصري بين الأهالي والأروبيين الذين كانوا بمركز البلدية بالمسيلة.

لقد تلقت مصالح الإدارة الاستعمارية بمنطقة المسيلة من الوالي بقسنطينة التعليمات الخاصة بتنظيم الحياة اليومية للأهالي والأروبيين أو الفرنسيين الذين بلغوا بداية الحرب 215 نسمة ،حيث لم تكن بالمدينة أية حامية عسكرية لحمايتهم ، لذلك عمدت السلطة المحلية على تجنيد كل عمال البلدية والشرطة والفرسان لمختلف الدواوير القريبة من المدينة و إقامة مخابئ للأوربيين خوفا من غارات قوات المحور[29] .وتم تكوين :

-مركز علاج أولي : يقوم بإشرافه عمال المصحة الملحقة بالمسيلة و مركز إنقاذ ومركز تنظيف

–مركز نقل بالسيارات وتكونت فرقة خاصة بالأوبئة والأمراض لمركز الاستيطان بالمدينة وفرضت إجراءات أمنية على محاصيل الحبوب خوفا من أعمال إجرامية[30].

كما شددت الخناق على الأهالي بواسطة القياد ومراقبة تحركاتهم وأنشطتهم وأمرت القياد بار سال تقارير مفصلة عن وجود أي عنصر من أحباب البيان والحرية[31].وفرضت تجنيد الأهالي في جبهات القتال بعد أن رفضوا العمل في الجندية إلى جانب فرنسا[32].كما كانت مدينة المسيلة محطة لعبور قوات الحلفاء من الغرب نحو تونس في جوان 1943 حيث تم تخصيص مركز لقواتهم بالبلدية[33]بأمر من الوالي بقسنطينة.

وقام القياد بحراسة المنطقة وإخبار السلطة بكل غريب أو جندي فار[34]، بعد أن تلقوا التعليمات بإعدام كل سجين يتم القبض عليه[35].إن الشغل الشاغل للإدارة الفرنسية هو امن والأروبيين وحياتهم بالمنطقة فقد كانت الحرب العالمية الثانية عاملا في استغلال المعمرين سجناء الحرب من الألمان والإيطاليين الذين تم القبض عليهم ببلدية المسيلة ،والذين بلغ عددهم 164 سجينا وسخروا في أعمال الفلاحة في ضيعات المعمرين ببلدية المسيلة[36].

أما الأهالي فقد عمقت ظروف الحرب ماساتهم و زادت في تعاستهم لدرجة فضيعة لم تشهدها المنطقة في تاريخها من خلالها حالات الوفيات و الفقر والحرمان بعد أن فقدوا كل شيء لديهم من مواشي وممتلكات[37].وتكشف تقارير القياد لمختلف دواوير بلدية المسيلة [38] حالات البؤس ونقص الغذاء حتى للمواشي التي بقيت على الحياة تقتات على الحطب اليابس فقط[39]، إن ما أصاب سكان بلدية المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية خصوصا سنة 1941،كان يستلزم تدخلا محليا ومركزيا فوريا وبجدية كبيرة فقراءة تقرير عن احد سكان المدينة ندرك ذلك الهول الذي أصابها بحيث يذكر أن حالات الوفيات للسكان بسبب الحمى خلال شهر واحد (رمضان 1941) كانت بمعدل 25 وفاة يوميا، في الوقت الذي لم تقم السلطات المحلية بأية مبادرة لفائدة السكان غير أنها لم تتعرض في المقابل لأية عقوبات من الإدارة العليا .وصل الحد بالسكان إلى عدم إمكانهم الحصول حتى على كفن الموتى بسبب انعدام الأقمشة في كامل المدينة ،وتشير الشهادات إلى أن الكفن يخيط عدة مرات لكفاية الميت ووصل الحال ببعض السكان إلى عدم استطاعتهم دفن موتاهم لعدم تمكنهم من الحصول على قماش الكفن.وقد وصل عدد وفيات سنة 1945 بالبلدية 2897 من جملة 3611 مواليد.[40]

لقد كان الوضع المأساوي الذي عاشه سكان البلدية ومركزها المسيلة بسبب السياسة الاستعمارية التي جعلت المعمرين يحتكرون الخيرات والمياه والثروة، ويفقر الأهالي ويحرمون من الشغل والغداء وهذا ما جعل أعيان فرنسا من القياد يتداركون هذا الوضع في تقاريرهم نهاية الحرب في ضرورة إعطاء الأهالي فرص أحسن للعيش بتوفير العمل ،وفتح ورشات الشغل وإمدادهم بقنوات مياه السقي وطرق المواصلات وتكوين فرق لتنظيف مدينة المسيلة وفتح مطاعم خاصة بالمحتاجين والمعطوبين وضرورة تموين الفلاحين ببذور الحبوب للقضاء على البؤس والحرمان والأمراض[41].

فخلال شهر رمضان1941 [42] حل بالمنطقة وباء التيفيس الخطير الذي صاحب حالة الجوع و الفقر وانتشار القمل و الجراد .و أدى الى حالة اجتماعية تكاد تكون استثنائية من تاريخ منطقة الحضنة،وقد كتب عنها احد أبناء مدينة المسيلة واحد رواد حركتها الوطنية السيد بوضياف عبد الحميد ، مقالات عديدة في جريدة سريع قسنطينة la dépêche de Constantine سنة 1941-1942 ابرز خلالها الحالة المأساوية لسكان مدينة المسيلة خاصة خلال شهر رمضان ،حيث كانت الوفيات بالجملة لدرجة عجز السكان عن نقل الجثث على الأكتاف ، استعملوا العربات التي تجرها الخيول لنقل الموتى الذين يصل عددهم يوميا إلى ما يزيد عن 30 وفاة ، و كان من اثر ذلك استحداث الاهالي لمقبرة جديدة بحي الأشياخ بالمسيلة لاستقبال العدد الكبير من الاموات ، وقد صاحب هذا الوباء عوز كبير في الأقمشة و الألبسة ، حيث تجمع شهادات السكان عن عجزهم عن توفير ابسط الأشياء مثل كفن نعش الميت .[43]

وفي خضم الأوضاع الاجتماعية الصعبة تخلت الإدارة الاستعمارية عن التكفل حتى بالمنشآت الضرورية للسكان في ظل عجز الإطارات الصحية ، إذا علمنا انه بين 1904 إلى غاية 1949 لم يكن بعيادة الأهالي بالمسيلة سوى طبيب واحد إلى جانب ممرضة واحدة . فتوقفت المدارس وفر المعلمون منها خاصة الأوربيون منهم خوفا وعجزا.[44]

ورغم اقتراح حاكم بلدية المسيلة المختلطة في رسالته (1943/12/20) إلى مضاعفة الطاقم الطبي للحضنة بدعم مالي إضافي فان الوضع استمر على حاله إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية 1946.

فخلال سنة 1941 ورغم الإضافة المالية لراتب الممرضة الزائرة إلى 2000 فرنك إلا أنها لم تغط المنطقة الواسعة المترامية الأطراف ولم تقدم الإدارة خلالها من المساعدات إلى الأهالي إلا :

- 1000 متر من القماش لصنع القندورة .
- 1000 متر من القماش لصنع القميص .[45]

وحملة المساعدات التي قدمتها مصلحة الأمومة في تقرير إحصائي لنشاطها بالمنطقة سنة 1941:

- عدد الفحوص التي قام بها الطبيب 15 فحصا .
- عدد الدورات التي قامت بها الممرضة الزائرة 13.
- عدد الرضع الذين فحصوا من طرف الطبيب 1912 .
- عدد القندورات التي وزعت للأمهات 133/25 قميص للرضع .
- عدد وفيات الرضع 117 أي 17% في زيادة عن 1939 .
- ارتفاع الوفيات بـ PALUDISME* بـ 19% .[46]

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية أصيبت الحضنة الغربية مرة أخرى بوباء خطير بدأ الظهور منذ يوم 22 أوت 1945 بشكل خطير و سريع ، ومن خطورته ارتفاع عدد المصابين يوميا بحيث كانت المصلحة الوحيدة تستقبل ما بين 600-300 مريض يوميا ، ونفذ دواء المخزون بسرعة ، وتسارعت التقارير وطلبات الإغاثة بالأطباء و الدوائر إلى الإدارات المركزية بالعاصمة بعد اتساع دائرة الوباء في محيط منطقة الحضنة و الذي عرف بـ conjonctivite granuleuse .[47] وأصابت كثيرا الأطفال الذين أصيب منهم 80%.

لم تقم الإدارة الاستعمارية بجهد يذكر من اجل الحد من انتشار الوباء ولم ترسل سوى ممرض واحد غير مختص .في 10 ديسمبر ارتفع عدد المصابين إلى 800 مصاب يوميا وتطلب الأمر تدخل الشرطة و الأمن لتداول المرضى على المصحة التي أرهقت ممرضتها الوحيدة .

عمل الدكتور الجزائري ألسماتي في تدخلاته العديدة في إطار المندوبيات المالية على طلب نقل المرضى بسرعة إلى مستشفيات المدن المجاورة كسطيف ، التي قامت

باستقبال و معالجة 819 مريضا وأصبح الدكتور سماتي يتابع شخصيا العملية بمدينة سطيف بالتنسيق مع مديرية النظافة و الصحة .

استمرت عملية نقل المرضى بالحافلات و الشاحنات يوميا إلى سطيف إلى غاية شهر أكتوبر 1945 في ظل نقص مواد التنظيف التي انعدم وجودها بكامل منطقة المسيلة مثل الصابون و الأدوية و القماش .[48]

لقد استمر تدهور الوضع الاجتماعي المرتبط باستمرار تدهور الاقتصاد الأهلي وتقلص الثروة الحيوانية واستمرار الجفاف وارتفع عدد العائلات المحتاجة رغم محاولات التضامن بين السكان في حدود إمكانياتهم[49].

وتشابهت أحوال سكان منطقة الحضنة بين الحربين في ظل استمرار الفقر والمرض ولم يحصل أي تطور يذكركما أشارت التقارير الفرنسية في مختلف الميادين ،بل استمر تضييق الإدارة الاستعمارية على السكان لمنعهم من ابسط الحقوق مثل استعمال المياه للتنظيف وتميزت هذه الفترة بسنوات حرجة من حيث انخفاض الغلات الزراعية و ارتفاع الوفيات كما كان الحال سنة 1937 بحيث أدى وباء التيفيس الذي يرتبط بالنظافة والتغذية إلى تقلص عدد السكان بلدية المسيلة من 54.371 سنة 1936 إلى 48396 نسمة سنة 1937[50] ،أي تقلص السكان بما يقارب ب6000 نسمة وقاربت نسبة ارتفاع الوفيات لسنة 1941 مقارنة سنة 1931 بـ 48 %**51**.

لقد ترتب عن هذا الوضع حالة من اليأس لدى بعض الأهالي الذين غادروا بلدية المسيلة المختلطة في اتجاهات مختلفة بعائلاتهم أو بمفردهم وكان العامل الجغرافي والعلاقات التاريخية من أهم عوامل توزيع هذه الهجرة السكانية مثل تاملوكة –سدراتة –عزابة برج بوعريريج قالمة وفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية كما اتجهت عائلات من منطقة القصابية نحو بلاد القبائل مثل تازمالت البويرة – مايو– الجزائر أقبو وكذا فرنسا.واتجهت كذلك عدة عائلات من بني يلمان نحو بلاد القبائل و متيجة وروبية وفرنسا[52].

كما أن المتصرف الجديد للبلدية يشير في تقريره[53] نهاية الحرب إلى حالة الفقر والحرمان التي تسود المدينة و أهاليها الذين باعوا كل ما يملكون من اجل لقمة العيش[54]،في الوقت الذي استغلت فيه شركة الأهالي الاحتياطية الظروف في تقديم قروض وصلت إلى 1000.000 فرنك رهن الأهالي مقابل لها أملاكهم وأراضيهم[55].كما نجد

في شهادة معلم فرنسي بمنطقة الدريعات[56]ذلك الواقع المؤلم لأهالي المنطقة وأبنائهم ،بحيث يشتكي معهم الجوع والبرد ويذكر الأطفال وهم جياع لا يلبسون إلا ما يستر عورتهم ولا يجد معهم في المدرسة ولا قطعة حطب للتدفئة لكن هل انتهى الوضع إلى هذا الحد بالنسبة للسلطة الاستعمارية؟.

لم تكن السلطة الاستعمارية ترى إلا من باب واحد هو خدمة الأهالي لفرنسا وللمعمرين وهذا ما جعلها تفرض عقب نهاية الحرب على الأهالي بعد المرض و الفقر غرامات تقدم لمختلف الجمعيات الفرنسية في إطار إعادة أعمارها مثل:

-الجمعية الخاصة بالموظفين الإداريين للمقاطعة التي فرضت دفع 30.000 فرنك.

-المتحف التاريخي للمارشال فروشي D'esporey Frenchet مبلغ 300.00.

-فدرالية المستعمرات للمقاطعة لمركز لاصطياف مبلغ 3000.00 فرنك ،كما فرضت الإدارة المحلية على جميع الدواوير مساهمات جعلت ميزانية البلدية تحقق فائضا ماليا سنة 1945 قدر بـ 200.970 فرنك[57].

وكان تعمير فرنسا المنهارة نهاية الحرب بخراب المنطقة البائسة بحيث فرض عليها تقديم دعم مالي إلى الجمعية الإسلامية لإعادة إعمار فرنسا بالمسيلة قدر بـ 427.675 فرنك قدم إلى الحكومة الفرنسية بواسطة أعيانها من القياد أعضاء الجمعية ورئيسها الأغا بوضياف علي[5958]. وكانت تقوم بالدعاية لها صحيفة صوت الأهالي La voix indigene بعنوان"le vrai visage du bled" ".

هذه بصمة صغيرة من بصمات السياسة الاستعمارية الفرنسية في إحدى المناطق الداخلية العميقة في الجزائر، وان تداركنا جزءا منها على ضوء الأرشيفات المتناثرة ،إلا ان الذاكرة الجماعية لأهالي منطقة الحضنة ومدينة المسيلة ما تزال تستشعر وطأة ذلك الزمن التي تداخلت فيه أحوال الطبيعة مع شؤم المستعمر وبطش الإدارة وتصرف القياد،وشكلت بعض الحالات الصحية مرجعية تاريخية لدى حياة السكان عند استرجاع محطات تاريخهم المعاصر. ويبقى رغم هذا التقديم الموجز لوضع الجزائريين خلال الاحتلال الفرنسي ،جانب كبير من التاريخ الاجتماعي ينتظر بحثا متواصلا لكشفه وتقديمه بالصورة التي تبعث الهمم لواقع أفضل وتجرم الاحتلال على ما اخذ وعمل في أوطاننا[60].

- هوامش المقال:

[1] L'abbé burzet: histoire des désastres de l'Algérie,imp,centrale algérienne,1869.

[2] -CAOM (centre d'archive outre mer Aix) 8H7 .occupation de Bou Saada , rapport du 12/11/1849.

[3] -CAOM : 8H22, trouble dans le hodna , rapport du 23/09/1864.

[4] -ACMM (archive de la commune mixte de M'sila) B (boite),264, Assistance musulmanes , renseignement statistique .

[5]-Burzet,abbé:l'Algérie, 1866-1867-1868, sauterelles, tremblement de terre, choléra, famine, -imp. de E. Garaudel (Alger)-1869 ;pp24-41.

[6] -CAOM:65k1.2poste de. M'sila , cercle de boussada , rapport de mossu ,medecin aide-major à M'sila détaché à M'sila (10/09/1867) .

[7] -CAOM:8h7. cercle bousaada , rapport du medecin deville , medecin aide major (21/09/1867.page : 168).

[8]-CAOM:8H7,OP-.cit page 166 .

[9] . CAOM 65k1,rapport de M.le commandant supérieur (1866 – 1867).

[10] -CAOM:65k4.rapport de M.Lienard . médecin aide major 1867.

[11] CAOM:65k3 rapport sur l'épidémie de 1867 dans le hodna.

[12] -- ACCM : B264 – Infirmerie indigènes . rapport .31/10/1904.

[13] -ACMM : B 87,Etat énumératif d'épidémie chloroforme du 11/08 au 8 octobre 1893-

[14] - في رسالة من سكان المسيلة الى الحاكم (1922/08/31) يشكون فيها حالهم جراء التمييز العنصري الذي كانت تمارسه الممرضة الوحيدة التي بقيت في الخدمة في العيادة وهي الفرنسية ، ضاق من تصرفاتها حتى اليهود الأهالي آنذاك (ACMB 12/01/1944

[15] -ACMB : B-217/ (1927/08/27societe de bienfaisance' al mousaada. مثل تكوين (جمعية المساعدة لمدينة المسيلة) .

[16] -Edmont,Sergent et autres: Contribution de l'institut Pasteur d'Algérie à la connaissance humaine, in cahier d'outre mer ,volume 7-8 année 1954,pp305-310.

[17] -ACCM : B 264,sante publique, lettre de l'administrateur 10/05/1949.

[18] - ACIM : B 210, –rapport du Caid boudiaf Med caid douar dreat 24/09/1918 .

[19] -ACCM : B 90-, santé- Lettre du directeur de l'école indigène de M'sila .04/04/1912 . (choussal) .

[20] -archives de l'institut pasteur Algérie , 1923.

[21] ACMB : B264..rapport 31/01/1936 .

*تكرر حالات وباء الكوليرا بعد سنة 1910 بالحضنة (انظر المبشر عدد 5277 السنة 62 الأربعاء 24 أوت 1910)

[22] - Gracchus : la famine dans le bled , la lutte sociale N° 220 , le 16/08/1923 et N°221 27/08/1923 et N°224/02/03/1923 .

[23] -I BID : 27/02/1923.

[24] -ACMM :B90 infirmerie indigène rapport du 03/01/1918

[25] -ACMM :B264 rapport quotidien (du 1904/1918) .

Archive de l'institut pasteur d'algérie 1923 خاصة رمد العيون للمزيد انظر

[26] -ACCM : B 213 – rapport administrateur 31/01/1931 et rapport administrateur – 31/12/1940 .

[27] مقابلات عديدة مع شيوخ المنطقة وشهادات مسجلة .

قدم المخرج السينمائي محمد لخضر حمينة صورة وافية عن هذه الوضعية في فيلمه

[28] -وقائع سنين الجمر و هو ابن البلدة التي أصابها الوباء.

[29]- ACMM,B,20; (rapport de L'Administrateur 9/5/1940)

[30]- ibid.

[31]- ACMM,B,54,D1, (lettre des caïd des douars de la CMM, 31/01/1943.

[32] -- ibid.

[33]- ACMM,B187 (lettre des caïd des Douars de la CMM, 31/02/1943

[34] - دور قايد ملوزة في القبض على الجنود الايطاليين وتسليهم لفرنسا –رسالة القايد بوضياف 25 أوت 1943 (ACM ,B257D4.)

[35] - ACMM,B187 (lettre l'Administrateur au caïds de le commune 25/9/1943)

[36]- ACMM,B; 257 D(prisonnier de guerre détaché a l'agriculture)

[37]- la dépêche de c[tne]-21-11-46) rapport de Boudiaf-Abdelhamid.

[38]- ACMM,B;54 (rapport des caïd 1941.)

[39]- ACMM,B;54 (rapport caïd de Kherabcha 2/1/1941.)

[40]. شهادات حية لعدد من السكان الذين عاشوا الفترة ومنهم الوالدان

[41]- la Dépêche de Constantine 21-11-46

[42] -dépêche de Constantine 22/10/1941.

ACMM:B90 : circonscription médicale de colonisation M'sila . épidémie [43] d'affection oculaires 25/09/1945 .

[44] رسالة معلم الدريعات (1941/02/12) وفيها تصوير فضيع لحال الأطفال الأهالي المعيشية الاجتماعية(ACCM : B -209)

[45] -ACCM : B 211 , inspection de l'assistance publique subvention par 1943/28/08/1943

[46] - I BID –rapport 02/11/1941 .

*J .clastrier : sur une Epidémie de paludisme observé à M'sila in contribution de l'institut pasteur d'Algérie : par JAMES ORIN OLI PHANT . institut pasteur . 1962 . P .31 .

[47] ACCM :B90 – circonscription médicale de colonisation d'affection oculaires 25/09/1945.

[48] -ACCM : B 133– assistance aux mères et aux nourrissons . rapport .25/05/1945 .

[49].-.A.C.M.M: B, 18. مثل تكوين أهالي المسيلة الجمعية الخيرية الإسلامية 1927/01/18

[50] -استمرار سنوات الجفاف بين 1921-1927 وأمراض التنفيس 1921-1937 في الوقت الذي لم يكن يوجد بالبلدية إلا طبيب متنقل من البرج [ين سالم عيسى] بين 18-1924.

[51]- ACM,B18.rapport administrateur.(5-09-1940)

[52]- ACM,B;133(Rapport des caïd 9/1/1941).

[53]- ACMM, B;89 (rapport de L'Administrateur3/3/45)

[54] 3-تشير الكثير من الشهادات إلى بيع السكان لأراضيهم الواسعة من اجل لقمة العيش

[55]4-تشير الرسالة الثانية إلى حرص التلاميذ (21) على التعليم ومساهمة أهاليهم في تموين مطعم المدرسة الوحيد بالبلدية المختلطة للمسيلة بمواد : الملح-البصل-الحطب –الخضروات-ACMM;B154

[56]- ACMM,B,154 (lettre de l'instituteur de l'école de Dreat a l'Administrateur 27/03/1941.

[57]- ACMM,B,53,D1,

[58] للإشارة فإن الميزانية البلدية استمرت منذ مدة طويلة تحقق فائضا ماليا بسبب قلة الإنفاق والضرائب العديدة على السكان..ACMM,B,87,115

للإشارة فإن الميزانية البلدية استمرت منذ مدة طويلة تحقق فائضا ماليا بسبب قلة الإنفاق والضرائب العديدة على السكان..ACMM,B,87,115